

إبراهيم (ع) وآية البعث/ ج(1)



كان أهلُ بابلَ ينعمون برغد العيش ويتفيتئون ظلال الذرّعة، ولكنهم كانوا يخطون في دياجير الظلال، ويترددون في مهاوي الضلالة؛ فقد نحتوا الأصنام بأيديهم، وصنعوها على أعينهم، ثم جعلوها أرباباً، ونصبوها آلهة، وعكفوا على عبادتها من دون الله الذي خلقهم، وأسبغ عليهم نعمته ظاهرة وباطنة.

وكان نمرود بن كنعان بن كوش قابضاً على زمام الملك في بابل، وحاكماً بأمره مستبداً برأيه. ولمّا رأى ما يتقلب فيه من نعيم، وما يتمتّع به من سطوة الملك، وما يحيط به من قوّة السلطان، ثمّ ما أطبق على القوم من جهل، وما ران على قلوبهم من عمّته، أقام نفسه إلهاً، ودعا الناس إلى عبادته. ولماذا لا يلزمهم الخضوع له، ويطلب منهم عبادته وتعظيمه، وقد وجد الجهل فاشياً، والعقائد فاسدة، والقوم في ضلال مبين! ألم يعيدوا الحجارة الصمّاء، والتماثيل الجوّفاء، وهي لا تسمع ولا تبصر، ولا تملك لهم نفعاً ولا ضرراً! أما هو فينطق ويفكّر ويدرك ويشعر، ويفيض عليهم الخير، ويدفع عنهم، ويستطيع أن يُصيّر فقيرهم غنياً، ويجعل عزيزهم ذليلاً وهو ذو قوّة فيهم، وصاحب سلطان عليهم. في وسط هذه البيئة الفاسدة، وفي بلدة فدام آرام من هذه المملكة ولِد إبراهيم لأبيه آزَرَ، ثمّ أتاه الله الرُّشد، وهداه إلى الحق، فعرف بصائب رأيه وثاقب فكره، ووحى ربّه أن الله واحد، وأنّه

المهيمن على الكون، المسيطرُ على العالم، وأدرك أن هذه الأصنامَ التي يعبدونها، وتلك التماثيل التي ينحرتونها، لا تُغني عنهم من اٍ شيئاً، لذلك أزمعَ الدعوة إلى توحيد اٍ، وعزم على تخلص قومه من وهدة الشِّرك، وأعدَّ العُدَّة ليثنيهم عن ضلالهم، واتخذ الأهبة لردِّهم عن غيِّهم.

وقد كان إبراهيم مُفعم النفس بالإيمان بربه، ممثلئاً بالثقة واليقين بقدره خالقه، مؤمناً بما أوحى إليه، مَن بعتِ الناس بعد موتهم، وحسابهم في حياة أخرى على أعمالهم، ولكنه أراد أن يزداد بصيرة وإيماناً، وثقة و يقيناً. وتطلَّع إلى أن يلمس الآية البيِّنة على البعث، ويرى الحجَّة الواضحة على النشور، فسأل ربه أن يُريه كيف يُحيي الموتى بعد موتهم، ويبعثهم بعد فناء أجسامهم. فقال اٍ له: (أولم تؤمن؟ قال: بلى) قد أوحيتَ إليّ، وآمنتُ وصدقتُ، ولكني تآقت نفسي للعيان، وامتدَّت عيني إلى المشاهدة، ليطمئن قلبي، ويزداد يقيني.

ولما كان إبراهيمُ يقصدُ إلى أن تطمئن نفسه، ويستقرَّ فؤاده، أجاب اٍ سُؤله، وأمره أن يأخذ أربعة من الطير، ويضمِّها إليه، ليتعرَّف أجزاءها، ويتأمَّل خَلقها، ثمَّ يجعلها أجزاء، ويفرِّقها أشلاء، ويجعل على كل جبلٍ منهنَّ جزءاً ثمَّ يدعوهم إليه، فيأتينه سعيّاً باذن اٍ.

فلمَّا فعل صار كلُّ جزءٍ ينضم إلى مثله، وعادت الأشلاء كل في مكانه، وسرعان ما سرت فيها الحياة، ورجعت إليها الروح، وسعت إليه بقدره اٍ وسارت إليه بإرادته، وهو يرى آياته البيِّنة، وقدرته الباهرة التي لا يعجزها شيء في السماوات ولا في الأرض.

هذه الطيور قد أزهق روحها، ومزَّق أجسادها بيده، ثمَّ تناثرت أشلاؤه وتفرَّقت أعضاؤها على عينه، ولما دعاها أقبلت عليه، واجتمعت إليه، ثمَّ تماسكت أجزاءها واتصل ما تفرَّق منها، وعادت إليها الحياة! وما من أحد يرى ذلك ثمَّ يُساوره شك، أو يتخالجُه ريب في فؤده اٍ على بعتِ الموتى من مراقدهم، ونشرهم من قبورهم، سبحانه! إذا أراد شيئاً فلا مردُّ له، وهو العزيز الحكيم.

يتبع...

المصدر: كتاب قصص القرآن